صيادو عين المريسة

بين البحر واليابسة أكثر من حياة

زهير دبس

مهما عصفت التحوّلات والتغيُّرات في خارطة المدن، تبقى الذاكرة الشفهية المتوارثة بين أجيال من أبنائها، مثابة الحارس الأمين ومرجعاً أساسياً لكتب التاريخ التي أصبحت سنداً لكل باحث. نستذكر هنا وفي السياق ذاكرة صيادي عين المريسة التي لا زالت تنبض بتاريخ العين كأنه حاضراً، كيف لا! وقد شكلو هم وقبلهم آباءهم وأجدادهم، امتداداً لعائلات امتهنت الصيد واصبحت جزءاً من دورة الاقتصاد لمدينة لبيروت.

يبدو أن سؤالاً واحداً لأي من صيادي عين المريسة، عن مهنة الصيد، كفيل باستجرار الكثير من الحكايا التي يطيب لهم استعادتها من بينها ما يعود الى التاريخ الغابر عن تسمية المنطقة، وتقول الحكاية أن مركباً كان يضم مجموعة من الراهبات تحطم عند شاطىء العين فغرق عدد منهنّ، في ما نجا عدد آخر، من بينهن الريّسة، التي أكرمها البحارة وشيّدوا لها مخيماً قرب العين، ولاحقاً شيّدت الراهبة في المكان نفسه ديراً، فسمّى الناس المنطقة بعين المريسة نسبة إلى الدير، ومن بين القصص ما يردّ أصل التسمية الى وجود ينبوع ماء عذب عند شاطىء عين المريسة يصب في البحر، فسمي عين الرئيسة أي المرسى الصغير بصيغة "المرسه" أي قطعة من الحبل.

مهنة ممتدة لعائلات العين

توضح الخارطة الاقتصادية القديمة أن أهل عين المريسة كان جلّهم يعمل في مهنة صيد السمك والزراعة والحدادة وصناعة الفخار، وهذه الأخيرة كان يمتهنها آل الفاخوري، وكانت تتم معظمها عند الشاطىء. وحدها مهنة الصيد انتقلت من جيل إلى آخر، وامتهنها عدد من أفراد العائلة الواحدة من أهل عين المريسة، من بينهم: حسن وسعد الله السباعي، عبدو وعادل وابراهيم نجم، عبد وعفيف الغضبان، أحمد حمدي وولديه محي الدين

وسعد الدين، ابراهيم الديك وابنائه بهيج ومنير وعزيز، حسن الخانجي وأولاده، ديب سعود وابنه عبد الوهاب حسن نجم وأولاده، خضر المصري أنور سلام وأولاده... إلخ.

قوانين مزاولة المهنة

يستوجب العمل في مهنة الصيد الحصول على إذن مزاولة المهنة بموجب رخصة تصدر عن السجل البحري في وزارة الاشغال والنقل، وتسجّل مراكب البحارة في رئاسة ميناء بيروت، ثم تمنح لكل منها تذكرة بحرية تحمل اسم ورقم الزورق. أما مهنة الصيد نفسها، فلها قوانين وأعراف، كما أخبرنا الراحل ابراهيم نجم أحد الريّاس السابقين للميناء، وصاحب أكبر متحف فردي في عين المريسة: "مش كل مين حمل صنارة وطلع بالشختورة صار صياد". على الراغب في امتهان المصلحة الانضمام الى فريق من الصيادين الذين خبروا المهنة قبله، ولا يجوز أن يزيد عدد الذين يركبون في القارب الواحد عن الخمسة، كما لا يجوز أن يكون فيه أكثر من ريس واحد عملاً بالمثل القائل: "المركب يلي فيه أكتر من ريس بيغرق" هذا المثل الذي يكتنز الكثير من دلالات السلطة، يبقى في الواقع في إطار "مونة المعلم" على أولاد منطقته بهدف تعليمهم أسرار المهنة.

رزق البحر بحر والرزق على الله

للصيد دورة زمنية تبدأ مع غروب شمس كل يوم، حيث يذهب الصيادون إلى عرض البحر، يضعون مصايد السمك في الأماكن التي خبروها جيدًا ثم يعودون إلى منازلهم، وفي الصباح الباكر من اليوم التالي يذهبون لتفقد الشباك.
أحد الصيادين يقول: "أيام بتكون الغلة كبيرة".. "رزق البحر بحر" وإيام لا يكون في الشبك أي شيء الرزق على الله" .
عند الانتهاء من عملية الصيد يبيع الصيادين غلالهم من الأسماك في تعاونية عين المريسة التي أسسها أبو ابراهيم سلطاني، وهي تقع ضمن نطاق العين، والتعاونية المذكورة كانت ولا تزال مقصد عدد كبير من الفنادق الفخمة التي تشتري بدورها الأسماك منها كونها طازجة وغير مثلجة.

عين المريسة عام ١٩٣٠

كنوز البحر

يكتسب بحر عين المريسة خصوصية لدى الصيادين من أبناء المنطقة، وعادة ما يتحدثون عنه مضيفين إليه نون الجماعة، "بحرنا". إذ لطالما أبحروا في غماره وواجهوا المخاطر رغم الظروف المناخية الصعبة، حفظوا ما في باطنه عن ظهر قلب، نوع الاسماك التي تعيش فيه، أمكنتها، مواسم تكاثرها، قيمتها، طعمها، كما حفظوا لون صخوره، وميزاته التي هي كميزة البحر المتوسط "لا مرجان فيه بل أصداف بحرية". من هنا يبدو البحر مسؤولية جمعية لدى الصيادين، ابتداء من حرصهم على نظافة الشاطىء وصولاً إلى منع رمي النفايات فيه واستخدام الديناميت في الصيد تجنباً لإلحاق الأذى بالبيئة البحرية.

البحر الأب

يرتبط صيادو عين المريسة برابطة قرابية مع البحر، فهو بنظر بعضهم أب، يستمدون منه لقمة عيشهم، يحكون له حكاياتهم، فرحهم، وعشقهم، وحزنهم. "أنا ابن هالبحر والابن ما بيحقد على والده" هذا القول الذي يكرره ابراهيم نجم عادة بعد استذكار عملية الغطس التي قام بها في العام ١٩٨١، والتي تسببت له في إعاقة جسدية دائمة في قدميه، إلا أن الحادثة المشؤومة لم تحد من عشق نجم للبحر بل بقي مثابة اب له.

قرية الصيادين بين الأمس واليوم

لا زالت عين المريسة في ذاكرة ابناءها "قرية الصيادين" وإن كانت قد تغيّرت كثيرًا بفعل التحوّلات العمرانية التي بدلت ديموغرافيتها، فهي حاضرة ببساتينها الخضراء وبيوتها القرميدية وزواريبها الضيقة وطوائفها المتعددة التي شكلت في تآلفها ومعاشها مثالاً قل نظيره.
إنها مورفولوجيا مكان لا يشبه أي مكان آخر، حيث العين أكثر من جغرافيا وأكبر من مرفأ، عين لا زالت تعبق بروح من عاشوا فيها ومروا عليها وتركوا بصماتهم في مراكبها، هنا كان لكل صياد أكثر من حياة، واحدة في عين المريسة وأخرى في بحرها.

المصادر:
أطروحة دكتوراه (غير منشورة) للباحثة رباب دبس تحمل عنوان: صور المدينة في السير الذاتية والشفهية: مدينة بيروت نموذجاً.
عصام شبارو، عين المريسة: صفحة مشرقة من تاريخ بيروت ودور وطني، قومي لا يموت، بيروت، دار مصباح الفكر، 2000.